زوجة محارب

مهدي عيسى الصَّقر

وقف الرجل يتأمّل، في شيء من الاستغراب، المشهد الذي تكشّف أمامه. بدا له المشهد دخيلاً على معالم ذلك الحيّ المترف، الذي اختار أن يمارس رياضة المشي فيه ذلك اليوم. ففي فسحة من الأرض، على مقربة من دار جديدة مازال العمل يجري في بنائها، رأى تنّوراً من الطين مبنيّاً على عجل، وامرأةً بثياب ريفيّة قاتمة تلملم حطباً متناثراً وتضعه فوق كومة من السعف، وكربَ النخيل والأغصان اليابسة على مقربة من التنّور، وطفلاً يدرج حافياً في الشمس بين الرمل والحصى والحجارة وموادّ البناء الأخرى المكدّسة هنا وهناك.

مشى الرجل صوب المرأة وسألها:

«هل تبيعين خبزاً؟»

فرفعت رأسها ونظرت إليه:

«نعم. لكنني لم أسجر التنّور بعد.»

«سأنتظر.»

فرش منديله فوق مجموعة من الأحجار وجلس يرقبُ الطفل يلعب وحده بين موادّ البناء.

«ذاك الصغير هناك.. أهو ابنك؟»

رَنَتِ المرأةُ إلى الطفل، وقالت نعم، إنه ابنها. بعد ذلك حطّت سعفة يابسة من كومة الحطب. ثنت ساقها وكسرت السعفة على قماش الثوب فوق ركبتها، ثم قطعتها وألقت بها في جوف التنّور البارد.

«وأين تقيمون؟»

«هنا.»

حملت المرأة كرباً وأعواداً يابسة وأدخلتها في جوف التنّور. تلفّت الرجل ينظر حوله في حيرة.

«هنا أين؟»

أشارت المرأة بإصبعها إلى البناء. تأمّل الرجل بناية الدار الجديدة التي لم تكتمل. أمامه كان ينتصب شامخاً فوق وجه الأرض هيكلٌ كبير من طابقين من الإسمنت المسلّح نوافذه العريضة ماتزال عارية من الزجاج، وأبوابه فتحات سود مشرّعة بوجه الريح. إلاّ أن نوافذ إحدى الحجرات، حيث أشارت المرأة، كانت مغطاة بألواح من الصفيح ومستطيلات من الورق المقوّى وأكياس إسمنت فارغة ومزَقٍ من القماش.

«أبي يعمل حارساً لهذا البناء، ونحن نسكن معه.»

رآها تحمل علبة صفيح صغيرة وتسكب قليلاً من سائل شفّاف في باطن التنّور. لم تكن امرأة كبيرة في السن؛ لعلّها لم تبلغ الثلاثين بعد، وإن بدت هزيلة وشاحبة.

«وإذا اكتمل البناء، وجاء صاحب الدار ليقيم فيها؟»

أشعلت المرأةُ عودَ ثقاب ورمتْ به بين الحطب المبلول، ونأت بنفسها، فحدث ما يشبه انفجاراً صغيراً في جوف التنّور، وتصاعد اللهب محاطاً بسحابة كثيفة من الدخان.

«إذا اكتمل البناء وجاء صاحبُ الدار، عندئذٍ نبحث لنا عن مالك آخر يريد أن يبني له داراً أو عمارة جديدة.»

أخذ اللهب يتطامن في باطن التنّور. بقيت ألسنةٌ صغيرة ممزّقة تتراقص عند حوافي الفوهة المتفحّمة، في حين ازدادتْ كثافةُ الدخان المتصاعد.

«في البداية نبني لنا كوخاً، وعندما يكتمل الهيكل..»

خمدت سحابةُ الدخان بعد قليل. فنظرت المرأة إلى الرجل في شيء من التردّد:

«هل بوسعك أن تساعدني؟»

نهض الرجل ومشى وراءها. سمع لغط البنّائين يعملون في جوانب أخرى من تلك الدار الواسعة. كانت الحجرةُ التي أدخلته المرأةُ إليها معتمةً، أرضها ماتزال مترية، وفي أرجائها تتناثر الأشياءُ كيفما اتّفق: قدور وصحون وثياب وأفرشة مطويّة وما شابه من لوازم لا غنى عنها لإدامة الحياة لعائلة صغيرة. وفوجئ بوجود رجل آخر معهما داخل الحجرة، أوشك في البداية ألا ينتبه لوجوده لولا حسيس أنفاسه وبريق عينيه اللتين ومضتا في العتمة. كان الرجل الآخر يتمدّد ساكناً بين طيّات فراش موضوع لصْقَ الجدار في زاوية من الحجرة، عيناه تتابعان حركتهما هو والمرأة، باهتمام وفي

شيء من عدم الارتياح، وتلمعان في محجريهما مثل عينيْ حيوانٍ حبيس. تمتم الرجل محرَجاً وهو يتحاشى النظر إلى عيني الرجل:

«صباح الخير.»

«صباح الخير، عمي.»

جاءه الصوتُ واهناً، مدحوراً. أراد أن يقول شيئاً آخر للرجل الراقد، إلا أن المرأة وضعت حدّاً لذلك الموقف المرتبك، وقالت بصوتٍ خالٍ من العواطف، وهي تشير إلى إناء كبير، مغطّى بقطعة قماش بيضاء:

«هذا هو طست العجين.»

وانحنتْ تمسك بطرف الطست، فانحنى هو أيضاً وأمسك بالطرف الآخر، وحملاه معاً وخرجا به من الحجرة تاركَيْنِ الرجلَ ملقىً في زاوية المعتمة. كان الطست ثقيلاً. وضعاه على الأرض، وعاد هو يجلس في مكانه فوق الأحجار.

«أبوك يبدو مكدوداً!»

تلفتت المرأةُ تبحث عن وليدها. رأته يلعب بالحصى على مسافة قريبة، فاطمأنت.

«هذا ليس أبي. هذا زوجي.»

قالت ذلك ومشتْ صوب كومة الحطب، ثم عادت ببعض الأغصان اليابسة وقطع الخشب الصغيرة وأدخلتها في التنّور.

توهّمه كهلاً وهو يراه متدثّراً بالأغطية هناك في ركنه القاتم.

«أهو مريض؟»

تصاعد الدخان كثيفاً مرّة أخرى من باطن التنّور، فجاءت المرأةُ بمحراثٍ حرّكتْ به النار فهدأتْ ألسنةٌ من اللهب تلوح متصاعدة من الفوهة المتوهّجة وسط سحابة دخان لم تلبث أن أخذت تخفّ وتتبدّد.

«نعم، هو مريض. كم رغيفاً من الخبز تريد؟»

ذكر لها العدد فتركته وذهبتْ صوبَ البناء. وراح هو يتأمّل الصغير يلعب بحبّات الحصى، ينقلها من مكان إلى آخر؛ طفل صغير جميل بعمر سنة أو أكثر قليلاً، شعره الخفيف مثل زغب أشقر يلمع في الشمس.

عادت المرأة بعد لحظات تحمل في إحدى يديها طاسةً مليئةً بالماء، وبالأخرى صينيةً مستديرةً واسعة فُرشت بطبقة من الطحين. وضعت الطاسة والصينية بجوار طست العجين.

«وهل هو مريض منذ مدّة.. قصدي زوجك؟»

«نعم، منذ مدّة.»

ابتعد الصغير عن كومة الحصى وجاء يمشي متعثّراً، وأضافت هي في شرود: «بقي هناك ست سنوات!»

لمح الطفل رغيفاً محترقاً مهملاً فوق الأحجار فمضى إليه. كسر له قطعةً صغيرة من الرّغيف ودسّها في فمه، وراح يأكل وهو ينظر إلى وجه أمّه. رنت إليه الأمُّ ساهمةً، ثم قرفصتْ على الأرض وكشفتْ عن الطست. كان العجين المتخمّر منتفخاً بعض الشيء، يعلو قليلاً عن مستوى حوافي الطست. غسلت المرأةُ يدها في طاسة الماء ثم أخذت تقتطع بأصابعها مقاديرَ صغيرةً من العجين وتكوّرها بين راحتيها وتضعها في الصينية فوق فرشة الطحين، الواحدة بجوار الأخرى.

«قبل سنتين تقريباً، أعادوه إلينا عندما بادلوا الجرحى من أسرى الطرفين.»

شبع الطفلُ من الأكل فَعَافَ بقايا الرغيف المحترق. تأمّلَهُ الرجل وهو يدرج مبتعداً، ورآه يقف عند كومة من الأحجار، وينحني ليحمل حجراً من على الأرض.

«كان به عَرَجٌ خفيف عندما أعادوه إلينا، فحمدنا الله.»

ظلّت المرأةُ تواصل عملها في تكوين العجين ووضعِهِ في الصينية وهي تتكلّم بهدوء، وبنبرة محايدة، بلا غضب ولا ضغينة، مثلما يتكلّم إنسانٌ عن كارثة من صنع الطبيعة.

«ولكنْ قبل أشهر ظهرتْ قرحةٌ صغيرة في مكان الجرح القديم، وبعد ذلك أخذتْ تتّسع وتأكل في اللّحم حتى وصلتْ إلى العظم، وما عاد يستطيع النوم.. والآن يريدون أن يبتروا..!»

أسقط الطفلُ الحجرَ على قدمه وراح يصرخ متوجّعاً، فجزعت المرأة، تركت عملها وهرعت إليه. حملته بين ذراعيها، هدهدته حتى هدأ، ووضعته بعد ذلك على الأرض فراح يتأرجح في مشيته والدموع تخضل وجهه المستدير الصغير.

«قلت كم رغيفاً تريد؟»

ذكر لها العدد مرّة أخرى.

غسلت المرأةُ يدَها في طاسة الماء ثم نهضتْ وذهبتْ صوب التنّور. تمتم الرجلُ في شرود:

«ابنك الصغير هذا سوف يكبر بعد سنين ويغدو بطلاً هو أيضاً يدافع عن وطنه، مثل أبيه تماماً!»

انقلبتْ ملامحُ المرأة في الحال. نظرت إليه بإمعان لحظةً طويلة كأنها تحاول أن تعرف أيَّ نوع من الناس هو. كانت عيناها قاسيتين التمع فيهما بريقُ غضبٍ مريع. لم يندهش الرجل. وشعر بشيء من الارتياح إذ اكتشف أن هدوءها الذي حيّره في البداية كان هدوءاً ظاهريّاً. حاول أن يبتسم لها معتذراً عن كلماته الفظّة، إلا أنّها أشاحتْ بوجهها عنه. رآها تبسط كفّيها فوق فوهة التنّور تتحسّس بهما حرارة الجمر المشتعل في القاع. لم تعجبها الحرارة؛ وجدتها غير كافية. فذهبت لتأتي بمزيد من الحطب تؤجّج به النيران المحتدمة في باطن التنّور.

بغداد